

تفسير سورة التوبه (17-22)

تفسير سورة التوبه (17-22)

**{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمِرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ
بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (17)}**

{مَا كَانَ} أي: ما ينبغي ولا يليق **{لِلْمُشْرِكِينَ}** بالله {أَنْ يَعْمِرُوا
مَسَاجِدَ اللَّهِ} التي بنيت لتوحيد الله، لعبادة الله وحده، ما كان
لهم أن يعمروها بطاعته، وهم يشهدون على أنفسهم ومقررون
بـالـكـفـر **{شـاهـدـيـنـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ بـالـكـفـر}** فإذا سـأـلـتـ المـشـرـكـ، قـالـ:
أـنـاـ أـعـبـدـ الـأـصـنـامـ، أـوـ دـيـنـيـ الشـرـكـ، وـإـذـاـ سـأـلـتـ النـصـرـانـيـ قـالـ أـنـاـ
نـصـرـانـيـ يـعـنـيـ يـعـبـدـ الـصـلـيـبـ، وـإـذـاـ سـأـلـتـ الـيـهـودـيـ قـالـ أـنـاـ يـهـودـيـ.

فـإـذـاـ كـانـوـاـ **{شـاهـدـيـنـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ بـالـكـفـر}** وـعـدـمـ الإـيمـانـ، الـذـيـ هوـ
شـرـطـ لـقـبـولـ الـأـعـمـالـ، فـكـيـفـ يـزـعـمـونـ أـنـهـ عـمـارـ مـسـاجـدـ اللـهـ،
وـالـأـصـلـ مـنـهـ مـفـقـودـ، وـالـأـعـمـالـ مـنـهـ باـطـلـةـ؟ـ!

ولـهـذـاـ قـالـ: **{أـولـئـكـ حـبـطـتـ أـعـمـالـهـمـ}** أي: بـطـلـتـ وـذـهـبـ أـجـرـهـاـ؛
فـالـلـهـ تـبـارـكـ وـتـعـالـىـ لاـ يـقـبـلـ مـنـ مـشـرـكـ عـمـلاـ، الـعـمـلـ يـقـبـلـ مـنـ
الـمـوـحـدـيـنـ فـهـمـ الـذـيـنـ يـعـمـرـونـ مـسـاجـدـ اللـهـ بـحـقـ **{وـ}** الـمـشـرـكـونـ
{فـيـ النـارـ هـمـ خـالـدـوـنـ} ماـكـثـوـنـ فـيـهـ أـبـداـ، لـاـ يـخـرـجـوـنـ مـنـهـاـ.

**{إـنـمـاـ يـعـمـرـ مـسـاجـدـ اللـهـ مـنـ آمـنـ بـالـلـهـ وـالـيـوـمـ الـلـآـخـرـ وـأـقـامـ
الـصـلـلـاـةـ وـأـتـىـ الـزـكـاـةـ وـلـمـ يـخـشـ إـلـاـ اللـهـ فـعـسـيـ أـولـئـكـ أـنـ يـكـوـنـوـاـ
مـنـ الـمـهـتـدـيـنـ (18)}**

ثم ذكر من هم عمار مساجد الله فقال: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ} وملائكته وكتبه ورسله {وَالْيَوْمُ الْآخِرِ} يوم القيمة {وَأَقَامَ الصَّلَاةَ} التي هي أفضل الأعمال البدنية، أقامها كما شرعها الله تبارك وتعالي.

{وَأَتَى الزَّكَاةَ} أعطاها لمستحقها، والزكاة أفضل الأعمال المالية {وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ} أي لم يخف إلا من الله تبارك وتعالي ولم يخش سواه، فكف عما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة.

قال السعدي: فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أمهما الصلاة والزكاة، وبخشية الله التي هي أصل كل خير، فهو لاء عمار المساجد على الحقيقة، وأهلها الذين هم أهلها. انتهى

{فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} و "عسى" من الله واجبة وحق، فهم مفلحون موفقون.

قال السعدي: "وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا عنده خشية لله، فهذا ليس من عمار مساجد الله، ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه".

{أَجَعَلْتُمْ سَقَایَةَ الْحَاجِّ وَعَمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَلَا يَسْتَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَلَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19)}

قال الطبرى: وهذا توييج من الله تعالى ذكره لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت، فأعلمهم جل ثناوه أن الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، لا في الذي افتخروا به من السدانا والسقاية.

ثم ذكر الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه: قال النعمان بن بشير: كُنْتُ عَنْدَ مِنْبَرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أَبَالِي أَنْ لَلَا أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أُسْقِي الْحَاجَّ، وَقَالَ أَخْرُ: مَا أَبَالِي أَنْ لَلَا أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أُعْمَرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَقَالَ آخَرٌ: الْجَهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ، فَزَجَرُوهُمْ عُمُرًا، وَقَالَ: لَلَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عَنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {أَجَعَلْتُمْ سَقَائِيَ الْحَاجَّ وَعَمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامَ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبية: 19] الْلَّا يَأْتِي إِلَيْهِ أَخْرِهَا. انتهى ففي هذا الحديث أن الحوار بين المسلمين أنفسهم.

وأخرج آثارا تدل على أن الفخر بالسقاية وعمارة المسجد كان من الكفار، وفي أخرى أن الحوار كان بين علي والعباس، وما أخرجه مسلم هو الصحيح من حيث الثبوت. والله أعلم

{أَجَعَلْتُمْ} أيها القوم {سَقَائِيَ الْحَاجَّ} أي: سقي الحاج الماء {وَعَمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} عمارته بالطاعة بالصلوة وغيرها {كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر {وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ} لأن الله لا يقبل بغير الإيمان به وبال يوم الآخر عملاً.

والجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، فلا تساوا بينها؛ لأن الإيمان أصل الدين، ويه تقبل الأعمال، وتزكي الخصال.

وأما الجهاد في سبيل الله فيه يحفظ دين الإسلام، ويتوسع، وينصر

الحق ويخذل الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فهي وإن كانت أعمالاً صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد **{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** أي: والله لا يوفق لصالح الأعمال الذين وصفهم الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

{الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (20)}

ثم صرخ بالفضل فقال: **{الَّذِينَ آمَنُوا}** به وبال يوم الآخر ويرسله فيما أنزل على رسوله **{وَهَاجَرُوا}** تركوا ديارهم في سبيل الله **{وَجَاهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ}** بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة **{وَأَنفُسِهِمْ}** بالخروج بالنفس **{أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}** بالجنة، الناجون من النار، أي: لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المرهوب، إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

{يُبَشِّرُهُمْ رَبِّهِمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (21)}

{يُبَشِّرُهُمْ رَبِّهِمْ} أي يبشر المؤصوفين بهذه الصفات **{بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ لَهُمْ وَرِضْوَانٍ}** منه تعالى عليهم، فلا يسخط عليهم أبداً. **{وَجَنَّاتٍ}** ويساتين **{لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ}** لا يزول ولا يبيد، ثابت دائم أبداً لهم.

قال السعدي: "من كل ما اشتهرت الأنفس، وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعد للمجاهدين

في سبيله مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم".
انتهى

{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} (22)

{خَالِدِينَ فِيهَا} ما كثير في الجنات {أَبَدًا} لا نهاية لذلك {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ} لهؤلاء {أَجْرٌ} ثواب على طاعتهم لربهم {عَظِيمٌ} وهو النعيم الذي وعدهم به في الآخرة.